العلوم الإنسانية بين الإسلام والغرب

أ. د. محسن صالح[١]

خلاصة:

تطرح هذه الدراسة مدخلاً جديداً أو رؤية مغايرة لما يتمّ تداوله عن التقسيمات الشائعة للعلوم بقسميها: العلوم العامّة (علوم طبيعية ورياضية وما وراء طبيعية)، والعلوم «**الإنسانية/ الاجتماعية**». وتقوم هذه الدراسة بطرح مجموعة من الأسئلة والفرضيات التي تصلح مقدّمة لنقاش واسع عن الأصول والمنطلقات والغايات والأهداف المطروحة والتسميات الخاطئة لفروع هذه الاختصاصات المتفرّعة عنها.

وتسعى هذه الدراسة لأن تعيد تشكيل المنهجيات المستخدمة، خاصّة في المعارف الاجتماعية والثقافية، إضافة إلى إعادة تقويم الغايات المطلوبة من هذه العلوم والتسميات المتداولة على غير تحقّق أو بحث بأصل هذه الملاكات العقلية التاريخية.

لذلك، نفترض في هذه الفرضيات أن تكون مقدّمة أو آليّات لعقل جديد ينعكس على أشكال تناول ما يُسمّى خاصّة «**العلوم الإنسانية**» وموقعها في العقل العالمي الإنساني. وفي حالة عدم إمكانية أن تشكّل ما يطلبه البعض

(١) مدير معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية.

منها سوف تشكّل منطلقاً لصراعات عالمية آخذة في التعمّق.

فهل ما نسمّيه «**علوماً**» تصحّ فيه هذه التسمية؟ وما الفارق بين العلمي والأهلي، أو المدني الخاصّ أو الجمعي المدني؟

مدخل

إنّ ما نفترضه من تقسيم للعلوم يمكن أن يتمّ على أساسين:

١. القيم الخاصّة التي تنبع من الثقافات المحلّية.
٢. القيم العامّة أو الإنسانية التي تنبع من عقل عالمي متكامل ومتدرج في التطوّر الإنساني، ولا يمتحن العقل المحلي لجماعة بعينها.

وسوف نقدّم في هذا المجال لمحة عن العلوم وفروعها والأسباب التي دعت إلى تقسيمها:

ولماذا دعيت هذه العلوم علوماً طبيعيّة شاملة أو كلية؟ ولماذا قوانينها واستخداماتها مشتركة بين الأمم؟

إنّ العلوم الطبيعية: هي العلوم التي لها علاقة بالتركيب الكونيّ الإسطقسيّ (العناصر المكوّنة)، والذي لا يُعدّ إبداعاً أو خَلْقاً إنسانيّاً، ولكنّ الإنسان يعمل على اكتشاف قوانينه ومعادلاته من خلال فروع معرفيّة علميّة؛ كالفيزياء، والكيمياء، وعلم الكواكب...

وهذه العلوم المذكورة هي - افتراضياً - العلوم الإنسانية؛ لأنّها مشتركة بين جميع الأعراق والشعوب والأمم؛ من حيث دراستها، وتجربتها، واستعمالاتها. ولا يستطيع شعب محدّد أو دولة بعينها أو حتى طبقة إدّعاء مِلْكيّة أيّ من هذه الحقول المعرفيّة. هذا على الرغم من أنّ الباحث في حقل معيّن من هذه الحقول العلميّة له الحقّ من خلال أبحاثه أن يعزو أو يشير إلى السابقين في هذا العلم، أو إلى انتمائهم العرقيّ أو الثقافيّ أو الدينيّ. والقضيّة في تناول هذه العلوم تخضع تاريخيّاً إلى ما فرضته الحاجة الإنسانية، وما صادفته من تحدّيات عقلية أو بيولوجية، أو بيئية، وما قدّمته الثقافة أو الدين من تعزيز وحثّ على البحث العلمي؛ لاكتشاف

أسرار الطبيعة، وتفسير قوانينها المحرّكة، وكيفيّات التعامل معها.

من هنا فإنّ القيم والمعايير في هذه العلوم - حتى ريعها ونسبتها التأسيسية- لا يمكن حصرها أو احتكارها بواسطة مجموعة من الناس أو أمّة من الأمم؛ لذلك إنّ ما نسلّم به -افتراضياً- أنّ هذه العلوم هي «**العلوم الإنسانيّة**» بامتياز، لا آراء أو أحكام مسبقة في مجال هذه العلوم؛ لأنّ مجالها مشترك ومفتوح على كلّ الثقافات والحضارات، ولا تعتمد في إنتاجها على عقل بعينه، أو مجموعة ثقافية، أو حتى دعوة دينيّة. والحقيقة في هذا المعنى عالمية؛ كقانون الجاذبية مثلاً، وإن يكن الذي اكتشف هذا القانون أو غيره غير منتم أو حتى معتقد بدين محدّد. فما تمّ اكتشافه لا يتناقض مع الدين، لا بل أنّ الدين يحثّ عليه بوصفه فريضة، وأنّ الذي اكتشفه إنسان كباقي الناس لا يتميّز عنهم سوى أنّه ينتمي -بالصدفة- عرقياً إلى هذا العرق أو ذاك من الأعراق.

كما أنّ ما يُعرَف بالعلوم الإنسانية؛ كالأدب بفروعه، والعلوم الاجتماعية: علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، والتاريخ، والجغرافيا (مع أنّ هذا العلم ينتمي إلى العلوم الطبيعيّة بسبب حياديّته الثقافيّة والحضاريّة) هو نتاج إبداع أو نشاط عقل إنساني. وهذه العلوم يمكن تمييزها - أيضاً - عن الأدب، والشعر، والقصّة أو الرواية، وغيرها من الكتابات العاطفيّة، والشخصيّة، والبيئيّة الجماعيّة. خاصّة أنّ هذه الكتابات تعبّر عن آلام شخصية الكاتب وعواطفه وانفعالاته؛ لذلك يمكن عدم اعتبارها علوماً يقينية، ويمكن وضعها، كما هو الحال تاريخياً، تحت مسمّى الأدب أو الفنّ. وهذه النشاطات العقلية والثقافية خاصّة بمجموعة من الناس، وهي معارف أهلية؛ كبعض الأساطير الشعبية والأمثال التي تعكس وعياً وضميراً جَمْعِيّاً وانطباعات إنسانية تُجرَّد من خلال اللغة المحلّيّة، ويصعب نقلها إلى الشعوب أو الثقافات الأخرى، وتبقى على صورتها الأصلية؛ كالعلوم.

بناءً على ما تقدّم، فإنّ الأزمات المعاصرة في العصر الحديث ناشئة عن محاولات تقزيم أو شيطنة ثقافة لثقافة أخرى(وليس للعلوم البحتة)، خاصّة من «**المستكبرين**» الذين يعتبرون الآخر متخلّفاً؛ نتيجة لثقافته. وهذا ما تقوم بنشره القوى الغربية وعلى رأسها الاستشراق الأمريكي المعاصر(برنارد لويس وأتباعه من المحافظين الجدد والصهيو-مسيحيين) هذه القوى الغربية استعملت الثقافة وقيمها، أو ما يسمّى «**العلوم الإنسانية**»؛ بوصفها آلة للاستعمار والغزو والإخضاع، إضافة إلى محاولات منع الشعوب الأخرى من الحصول عليها أو التقدّم في ما يتعلّق بمنهجيّات العلوم الإنسانية الحديثة؛ بما يخدم التعارف بين الأمم. هذه القوى استخدمت العلوم التي أنتجها العقل الإنساني؛ من أجل إخضاع الآخرين، وإشباع الغرائز النفعيّة للمستكبرين، دون النظر إلى مصالح الأمم الأخرى ووجودها الإنسانيّ. ويمكن تفسير ذلك بالعودة إلى القيم المؤسّسة للعقل الغربيّ والأمريكيّ الذي يقوم على احتكار المعرفة والعلوم والحقيقة؛ من أجل ضرب معارف الآخرين وثقافاتهم والقيم المشكِّلة لعلاقاتهم ولانسجامهم الجمعيّ.

وهكذا، يمكن استخلاص التالي: إنّ العلوم حتى تكون موضوعيّة وغير متحيّزة يجب أن تخضع للقيم الإنسانية، وأن تُميَّز عن الأدب وعناصر الثقافات المحلّيّة التي هي محلّ تجاذب وتفاعل، حتى داخل الأمّة أو الشعب ذاته، ولا يمكن أن تكون عالميّة، كما العلوم الكونيّة التي تُعدّ حقائقها مقنعة للعقل الإنسانيّ أينما وجد. هذا لأنّها تفسّر ظاهرة عالميّة إنسانيّة أو تكتشفها، كقضية الخسوف، والكسوف، والزلازل، والبراكين .... وغير ذلك ممّا هو موجود في كُتُب العلماء.

بهذه الروحية العلمية يمكن النظر إلى «**العلوم الإنسانيّة**»(الكونيّة -الطبيعيّة) على أنّها عالميّة؛ من حيث المنطلق، والمفهوم، ومجالات التطبيق والانتشار. وهكذا تعامل المسلمون الأوائل مع العلوم، فما اعتبروا

العلوم اليونانية أو الدواوين الفارسية علوماً غير إنسانية؛ لأنّ مصدرها الثقافي والعرقي مختلف عنهم، وإنّما درسوها ومحّصوها وأخذوا ما هو موضوعي ومعقول إنسانياً، وعملوا به، وشيّدوا عليه، وطوّروه. ولذلك ميَّز العلماء بين علوم المعقول والمنقول (الوحي الإلهي)، وإن كان لا تناقض جوهرياً بين أصول هذين المضمارين العلميين وغاياتهما. وكذلك حين امتلكوا مفاتيح العلوم: علوم المناظر، والفلك، والطب، لم يحتكروا أيّ علم، بل نشروه وعلّموه، واعتبروه مفيداً للإنسانيّة. فحقيقة العلم تصير نفسها عند الذي يقوم بالعمل عليها ويقدّر قيمتها في «**عمارة الأرض**»، و«**استخلاف الإنسان**»، ولا تصبح حقيقة كلّية إلا إذا كانت كذلك كونيّة... وإنسانيّة.

لقد أنشأ الغرب علوماً أسماها «**إنسانية**»: علم الاجتماع، وعلم النفس، والأنثروبولوجيا، وغيرها من «**العلوم المستحدثة**»؛ بأقسامها وتشعّباتها المتعدّدة، فكانت إمّا تعبيراً عن ثقافة ذاتية يُراد تعميمها، وإمّا استُخدِمَت لدراسة ثقافة أخرى؛ لمعرفتها وتدمير أسسها وقيمها أو تشويهها؛ لأنّها لا تتماهى مع ما يعتقده المستشرق الغربي.

هذه العلوم، وإن كان موضوع دراستها الإنسان والمجتمعات، خاصّة المجتمعات الأخرى، لم تَحِدْ عن المركزيّة الثقافيّة الغربيّة ومقاييسها في التقويم العامّ للثقافات الأخرى ومعتقداتها وعاداتها وتقاليدها. لهذا فإنّ ما نعتقده اليوم من «**علوم إنسانية**» إنّما هي علوم ذاتيّة شعبيّة؛ أهليّة أو مدنيّة، واجتماعيّة تختصّ بجماعة محدّدة من الناس والظواهر الناتجة عن تفاعلها، ولا تكتسب حقائقها العالمية بالضرورة؛ أي لا يمكن أن تكون آليات لعقل إنسانيّ عالميّ... اللهمّ إلا إذا استثنينا الأدوات البحثية التي ربّما تكون صالحة عالمياً، والتي تستند في دراستها البحثية إلى الميدان والإحصاء؛ يعني تستند إلى أجزاء من العقل العلمي المنتج للحقائق الكونيّة الإنسانيّة.

بناءً عليه، فإنّ كلّ ما هو اجتماعي، ليس بالضرورة أن يكون إنسانياً بالمعنى المطابق أو المتواطئ، اللهمّ إلا ما يتضمّنه من معنى يشير إلى قيمة كلّية؛ مثل: العدالة، والحرّيّة، والرحمة، والصدق، ... لذلك، لم تأتِ المناهج الدراسيّة وتوقّعات الدارس أو الباحث الغربي يوماً من حيث النتائج بما ينسجم مع الواقع الموضوعيّ للفئة الاجتماعيّة المدروسة. وربّما من النماذج الصارخة؛ دراسة قام بها عالم الأنثروبولوجيا كليفورد غيرتز عن الثقافة الإسلامية في أندونيسيا. ففي دراسته هذه حاول أن يقول: إنّ الثقافة الإسلاميّة في أندونيسيا هي غير إسلاميّة بالمعنى الحقيقي، وإنّما هي هندوسية - بوذيّة. هذا ما أثار حفيظة المثقّفين من الشعب الأندونيسيّ، وردّوا عليه بقوّة... تلك عيّنة عن كيفيّة تصوير الآخر في الدراسات الغربيّة المعاصرة للشعوب الأخرى.

ومشكلتنا في العالم الإسلامي مع شركائنا (موضوع معارفنا التالية) في هذا العالم، وخاصّة مع الغرب والولايات المتّحدة التي هي إحدى منتجات العقل الثقافي والاجتماعي الغربي، تكمن في أنّ العقل الغربي هو عقل إلغائي، ولا يعترف للشعوب الأخرى، وخاصّة الإسلامية؛ بمساهمتها في تاريخ الأفكار والعلوم، ناهيك عن إحيائه لمقولة العولمة التي يريد من خلالها نسخ ثقافة الآخر وتغريبها؛ أي جعل العالم يعتنق الثقافة الغربية ويسلك في حياته سبيلاً مستلهماً منها.

إنّ العقل الاستشراقي - أيّ العقل المختصّ بمعرفة ثقافة الشرق بفروعها كافّة وتقديمها - للغربيين لا يزال مهيمناً على السلوك الثقافي والعلمي تجاه الآخرين، وهذا ما يعرقل عملية «**التعاقل**» والتعارف بين الأمم المشغولة بالفعل وردّ الفعل. وللأسف الشديد، فإنّ الاعتراف بالآخر يتمّ من خلال أفعال وإنجازات إنسانية أخرى ليس لها علاقة بالعلم والقيم التي تحترم الإنسان، بل بالسياسة وفنونها - من ضمنها القوّة الخشنة، والحرب والقتل؛ لإخضاع الآخر-، وهذه السياسة- في أصولها- شكل من أشكال التدبير الذاتي لكلّ أمّة من الأمم، ولا تنتجه عقول خارجة عن

نطاق الحيّز الاجتماعي الخاصّ بمجموعة من الناس ضمن ارتباطات تاريخيّة، وبيئيّة، وثقافيّة، وشرعيّة مشتركة.

إنّ الاعتراف بالآخر - غربيّاً - لا يتمّ على قاعدة المساواة بين البشر؛ بوصفهم موجودات ومخلوقات إلهيّة، بل على قاعدة البقاء للأقوى الداروينيّة. وهذا يتنافى مع أبسط القواعد الإنسانيّة: «**شراكة في الكون والوجود تعني مساواة في الحقوق والواجبات الفرديّة والجماعيّة**»، ومنتجها الثقافة.

لذا، يبقى السؤال الدائم أو البحث المستمرّ هو عن القيم الحاكمة، وعن منهجيّة تفكير العقل من موقع «**النظير في الخلق**»، أو «**الأخوّة في الدين**». هذا هو واقع الابتلاء في المدارس الفكريّة في العلوم الإنسانيّة.

أولاً: العلاقة بين الإسلام والعلم:

إنّ الإسلام دين العلم والبرهان والمعرفة. والله -تبارك وتعالى- أوّل ما أنزل على رسوله الأكرم ﷺ «**سورة العلق**»، وهي نزلت بصيغة الأمر: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] والله تعالى علّم الإنسان آدم عليه السلام الأسماء كلّها: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. والتشديد على العلم والمعرفة والحكمة والكتاب، وجعل العلم فريضة إلهيّة على المؤمنين في القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى. وفي ما علّمه للرسل والأنبياء عليهم السلام دليل على أنّ العلم مسألة وفريضة إلهية مطلوبة من المؤمنين. وقد روي عن الرسول الأكرم ﷺ أنّ: «**طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة**»[3].

(١) العلق: ١-٥.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ط٣، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٤٠٣هـ. ق/ ١٩٨٣م، ج١، كتاب العلم، باب١، ح٥٤، ص١٧٧.

أمّا في موضوع العقل وأهمّيّته بالنسبة إلى الدين الإسلامي، فقد روي عن النبي الأكرمﷺ أنّه قال: «**إنّ الله تعالى أوّل ما خلق العقل فقال له: أقبل، فأقبل، وقال له: أدبر، فأدبر، فقال تعالى: بعزتي وجلالي بك أثيب وبك أعاقب**»(١). ويروى عن أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام كثير من الأحاديث والخطب عن الأهمّيّة العظمى للعقل: ماهيّته، وصفاته، والتجمّل باستعمال حكمه، وحلمه: «**بالعقل كمال النفس**»، «**إنّ الله سبحانه يحبّ العقل القويم**»، «**كثرة الصواب تنبّئ عن وفور العقل**»، «**كمال الإنسان العقل**»، «**العلم يدلّ على العقل، فمن علم عقل**»، و «**العقل غريزة تزيد (أو تتقوّى) بالعلم والتجارب**»(٢).

هذه الصلة البيّنة بين الخَلْق الإلهي والعقل والعلم والتجربة لها دلالات عميقة على تشكّل الإنسان وتحدّد واجباته ووظائفه في الوجود وبلوغ مرتبة الكمال. وهي صلة تكاملية مرتبطة بمآل الإنسان: من أين وفي أين وإلى أين؟

ثانياً: معيار تحديد العلم ومقياسه المعرفي:

عرّف كبار الفلاسفة، وخاصّة الفلاسفة المسلمين؛ كابن سينا (ت: ١٠٢٧م) العلم على أنّه: «**إمّا تصوّر، وإمّا تصديق**»؛ والعلم بناءً عليه؛ إمّا نظريّ، وإمّا عمليّ، ومصاديق ما هو نظري ينطبق على ما في الرياضيات من موضوعات تتطابق مع ما يظنّه العقل بأنّه مسألة يقينية وغير قابلة للنقض أو المغالطة. والتصديق ما يكون وجوده برهاناً على حقيقته الواقعيّة واليقينية. هذان العلمان اليقينيّان غير القابلين للتكذيب عالميّان لأي صاحب عقل، بحيث تصبح القضية، كما يعتقدها الفلاسفة: تطابق

(١) م.ن، كتاب العقل والعلم والجهل، باب٢، ح٩، ص٩٧.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحكم ودرر الفوائد، حكم للإمام عليعليه السلام، جمعها وفهرسها علي رضا برازش، طهران، مؤسسة انتشارات أمير كبير، ١٣٧١هـ. ش، ج٢، ص١٩٢٤-١٩٣٨.

العاقل والمعقول[١]. وفي كتابه «**إحصاء العلوم**»، يقسّم أبو نصر الفارابي (ت: ٩٥٠م) العلوم إلى ستّة فروع أو أقسام: (١) علوم اللغة، (٢) علم المنطق، (٣) الرياضيات: الهندسة والحساب، (٤) العلم الطبيعي، ويضمّ عشرة فروع، (٥) العلم المدني، (٦) علم الكلام وما بعد الطبيعة. وقد ابتدأ الفارابي من العلوم المكتسبة إلى العلوم النظرية العقلية التصورية. والعلوم المدنية تقع في وسط تقاطعيّ/ تفاعليّ لهذه العلوم؛ لما فيها من جمع للعقليّ النظريّ، والعمليّ التطبيقيّ والمدنيّ/ التدبيريّ/ والسلوكيّ. ولعلّ أبرز التقسيمات وتبويبها للعلوم الحديثة، وملاكات كلّ من هذه العلوم وأسبقيّة النظريّ على التجريبيّ، ضمن تحديدات واضحة، تتبيّن في كتاب «**المنهج الجديد لتعليم الفلسفة**» للشيخ محمد تقي المصباح اليزدي[٢]. كما أن الفيلسوفين الغربيين: أوغست كونت (فرنسي، توفي في خمسينات القرن التاسع عشر الميلادي، كتب دروس في الفلسفة الوضعية) وهربرت سبنسر (إنكليزي، ت: ١٩٠٣م) الفيلسوف التطوّري، اتبعا المنهجيّة الكلاسيكية نفسها في التعامل مع تطور العلوم النظريّة والعمليّة/ الاجتماعيّة. هذا التقسيم، الذي يعود في أصوله ومنطلقاته إلى الفلسفة اليونانية، وخاصّة مع أرسطوطاليس، لا بدّ من مراجعته؛ نظراً للتشعّبات المعرفيّة المستحدثة، وخاصّة التفرّعات العلمية الجديدة. للعلوم الراهنة، وعلى الرغم من تفصيلاتها وتعدّد اختصاصاتها، ولكنّها أصبحت في جوهرها أقلّ تأثيراً لناحية الوظيفة الجمعية. إنّها أصبحت محتكرة لدى مجموعة من الناس تستغلّ بموجبها المجتمعات الأخرى. لقد أضحت العلوم أقلّ إنسانيّة، بدون تأثير من الناحية العاطفيّة والمشاعريّة. ولم تجتهد الأجيال المعاصرة لجعل العلوم (سواء أكانت النظرية أم العمليّة/ التجريبيّة، أم حتى ما يسمّى الإنسانية) كي تصبح أكثر شعبية،

(١) انظر، ابن سينا، أبو علي: الشفاء-الإلهيات، تحقيق قنواتي وزايد، إشراف إبراهيم مدكور، القاهرة، ج١، ص٣-٤.

(٢) ترجمة محمد الخاقاني، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٠م، ص٦٦-٦٧.

من حيث تطوير العقل الشعبيّ للأخذ عقليا بهذه العلوم التي أصبحت مقلّدة تقليداً سطحيّاً وأصبحت فائدتها محدودة من الناحية الريعيّة. لقد تطورت ولم تعكس سعادة عند الإنسان المعاصر، لا بل ازدادت الإنسانيّة شقاءً.

ثالثاً: هوية العلوم الإنسانية في الغرب:

ما تقدّم يُدخلنا في نقاش في العلوم الإنسانية أو «**الإنسانيّات**»، وأيّ العلوم يمكن أن تصحّ فيها هذه التسمية؟ غربيّاً، هذه التسمية أتت ردّاً على ميتافيزيقا الكنيسة وقبولها التقسيمات الاجتماعية القائمة على التمييز بين الطبقات، وجعل الأفكار والامتيازات من حقّ مجموعة من الناس أو من حظّها. أتت الثورة البروتسانتية حتى تفتح الطريق أمام الإنسان-الفرد- لكي يكون محور الكون. والإنسان أصبح سيّد نفسهكما يقال- حرّاً من كلّ القيود التي فرضتها قيود الحكّام الظالمين أو الذين احتكروا كلمة «**الربّ**». بدلاً من ربّ واحد كوني أصبح كلّ إنسان في الغرب هو ربّ ذاته. وقد بلغ هذا الفكر ذروته مع الفلسفة الوجودية- وخاصّة الملحدة منها- مع جان بول سارتر الذي اعتبر أنّ «**الوجوديّة مذهب إنساني**». هذا الطريق الفلسفيّ جعل عقل الإنسان هو المُنشئ للمعقولات الذاتيّة والخارجيّة؛ كون الأنا هي المركز الوجوديّ للفرد، وبمعزل عن الجماعة. ومع هذه النزعة الفكريّة أخذت العلوم الإنسانيّة تنحو منحىً تجريبيّاً ذاتيّاً انعكس على «**علم النفس**»، والأدب، والفنّ، والشعر. وبدلاً من إحياء الإنسانيّة ترعرعت الفردانيّة، وبدلاً من «**موت الربّ**» في تعبير نيتشه - الفيلسوف الوجوديّ - الإنسانيّ- الألمانيّ، ماتت الإنسانيّة من عقول النخب السياسيّة، وانتقل إلى الأفراد في الغرب، وأضحت الحرّية الفردية مصيبة اجتماعية. من هنا، كانت الحاجة إلى علم الاجتماع ليكون كابحاً للشطحات الفلسفيّة الوجوديّة. وظيفة علم الاجتماع كانت

- وما زالت في الغرب - دراسة الظواهر الاجتماعيّة، وإعادة الاعتبار للمجتمع والعقل الجمعيّ بدلاً من الحرّيّة الفرديّة ومشاعرها التي تنشأ؛ بوصفها نتيجة للاجتماع الإنسانيّ! إنّ الأب المؤسّس لعلم الاجتماع الحديث هو الفيلسوف الفرنسيّ إميل دوركهايم (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) الذي ربط بين المجتمع والدين الجمعي. وقد كتب دوركهايم مجموعة من الكتب عن الظواهر الاجتماعية الحديثة، وخاصّة الانتحار وتقسيم العمل. ولعلّ أهمّ كتبه عن الدين والمجتمع هو كتاب «**الأشكال الأولى للحياة الدينية**». وفي هذا الكتاب يعتقد دوركهايم أنْ ليس هناك مجتمع من دون دين، ولا دين من دون مجتمع، وقسَّم كلّ شيء إلى «**مقدّس**» و«**مدنّس**». هذه الثنائية اعتبرها أبديّة وكلّيّة عامّة في كلّ المجتمعات. وأنّ المعارف والسلوكيات الاجتماعية هي مظاهر واقعية للمعتقدات الدينية. إنّ دوركهايم نظَر لدين إنساني بعيداً عن الوحي الإلهي، وإن كان يضع «**الإيمان بالغيب أو الميتافيزيقا**» أساساً لكلّ دين(!). وماكس فيبر البروتستانتيّ (ت: ١٩٢٠م)، عالم الاجتماع الألماني المعاصر لدوركهايم الفرنسيّ، اعتبر أنّ الأخلاق البروتستانتية كانت الأساس الروحي لنشأة الروح الرأسماليّة.

وفي أواسط القرن العشرين وضع أحد الكتَّاب الأمريكيّين، من غير المشهورين، كتاباً بعنوان الإنسانيات المتحوّلة أو المتغيّرة (The Changing Humanities) تلمس فيه فهماً أعمق وأدقّ لمفهوم الإنسانيّات. ويقول ديفيد ستيفنس: «**صحيح أنّ الناس استخدموا مصطلح «الإنسانيات»** لغاية التفريق بين شكل عالٍ من الثقافة أو التعليم العالي وبين الأجزاء المعروفة بالعلوم (البحتة) والعلوم الاجتماعية»[1]. وهكذا، فإنّ ستيفنس اعتبر أنّ الإنسانيات لا ترتبط بأيّ من العلوم الجزئية أو المهنيّة لأيّ إنسان بعينه. ولكنّها

(١) ستيفنس، ديفيد: الإنسانيات المتحوّلة أو المتغيّرة (The Changing Humanities)، ١٩٥٣م، مقدّمة الكتاب، ص٩.

- أي الإنسانيات - وإن كانت لا تنتمي إلى أيّ طبقة أو مهنة، هي «**تجسيد لكلّ أشكال الفهم والتعلّم والتجربة والتعبير الإنساني**». ويضيف ستيفنس، وبكلام أدقّ، إنّ «**تلميذ المدرسة... والعالم في الجامعة، والفنّان، كلّ هؤلاء يمتلكون القيم التي تحملها الإنسانيات وتعطيها**»[١].

باختصار، وبناءً على ما تقدّم، إنّ إنسانيات الغرب واجتماعياته سطَّحت الدين وجعلته إمّا خاضعاً للعقل الإنسانيّ الفرديّ أو الجماعيّ، وإمّا في خدمة الإنسان المادّية النفعية، بدل أن تكون القضية معكوسة. المتغيّر لا يستطيع أن يكون المصدر لما هو ثابت، والعاقل لا يعقل أن يكون تابعاً للمعقولات، والغرب قلَّب هذه البديهيّات المنطقيّة، كما فعل كارل ماركس مع أستاذه فردريك هيغل في القرن التاسع عشر، وكما أراد فلاسفة الغرب الجدد؛ من خلال إرساء الروحية المتفرّدة في الحكم على الإنسانيّة عبر مقولة «**صدام الحضارات**» لصامويل هنتنغتون (بدأت في مقالة له في دورية فورين أفيرز عام ١٩٩٣)، ومن تبعه من مثقّفي الغرب، والتي تقسّم العالم إلى شطرين، واحد متقدّم وآخر متخلِّف، وعلى الثاني إتّباع الأوّل وإلغاء ذاته. وفي غير ذلك فإنّ الصدام والحروب ستقع. وهذا -فعلاً- ما تقوم به وتروّج له إنسانيّات الاتّصال الحديثة وعلومها؛ بالتمثيل، والصوت، والصورة.

رابعاً: الرؤية الإسلامية للعلوم الإنسانية:

إنّ نظرة الإسلام و«**المسلمين**» للثقافة والإنسانيّات تختلف في جوهرها كلّيّاً عمّا هو سائد في الغرب؛ لناحية البناء النظريّ، والفكريّ، والاجتماعيّ، والسياسيّ، والأنثروبولوجيّ. والاختلاف هو في العمق؛ بحيث إنّ سلَّم القيم والنظرة إلى الإنسان لا يلتقيان. فإنّ النظرة الغربيّة،

(١) ستيفنس، الإنسانيات المتحوّلة أو المتغيّرة، م. س، ص ٩.

وخاصّة الفلسفة التطوّريّة الداروينيّة وإلباسها للعلوم الإنسانيّة، يباعد كثيراً بين النظرتين الغربيّة والإسلاميّة:

١- الغرب يرى أنّ الإنسان مخلوق طبيعي، بينما الإسلام يرى أنّ الإنسان مخلوق إلهي.

٢- الغرب يرى أنّ المنفعة هي الغاية والعنوان الإنساني الأبرز، بينما يرى الإسلام أنّ غاية الإنسان التقوى والسعادة عن طريق العبوديّة.

٣- الغرب يرى في الإنسان صورة الحيوان، مع أنّ ذلك متناقض مع المسيحية وأصولها التي ترى أنّ الله خلق الإنسان على صورته، والإسلام يرى أنّ الله -تعالى- «**استخلف الإنسان في الأرض**».

إنّ الله -تعالى- أوحى إلى عبده النبي الأكرمﷺ الكتاب والسنّة، والتي جُمِعَت في القرآن الكريم، المتّفق عليه بين جميع المسلمين، وسيرة النبي الأكرمﷺ التي جُمِعت في الأحاديث المسندة والصحيحة. وسعى الرسول الأكرمﷺ وأهل بيتهعليهم السلام وأصحابه لنشر الدعوة والسلام والوئام بين القبائل العربية والديانات الموجودة في ذلك الوقت والمتخاصمة والمتنازعة على الغنائم وعلى آلهتها.

إنّ النبي الأكرمﷺ وأهل بيتهعليهم السلام كانوا مزوّدين بلغة إلهية لنشر المساواة والعدل بين الناس بدلاً من الكراهية والصراع؛ فالدعوة الإسلامية نشرت التوحيد ودعت إلى عبادة الله الواحد بدلاً من تعدّد الآلهة، ودعت -أيضاً- إلى رؤية صائبة للوقائع، واتّباع الحقائق، ورؤية الأشياء كما هي في قبائل كانت تؤمن بالتفاوت بين الناس وبالعصبيّة الجاهليّة. وقد استعمل الإنسان المسلم العقل والأعمال الحسنة بدلاً من الغزو والوأد والغنيمة.

باختصار، إنّ النبي الأكرمﷺ والأئمةعليهم السلام وصحابتهم كانوا يسعون إلى إقامة بنيان من القيم قائماً على الأخوّة، والرحمة، والعدالة، والحرّيّة، وبناء إنسان عالمي النظرة للإنسانية.

إنّ القيم والمعتقدات الجديدة أضاءت السبيل لقبائل الجزيرة العربية، ودرّبتهم على المعرفة؛ بوصفها قيمة جوهرية في بناء العلاقة بين الناس ومع الله سبحانه وتعالى. يقول الله -تعالى- في محكم قرآنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1]. فالدين في الوعي الإسلامي ليس وليد ثقافة أو مجتمع محدّدين، ولكنّه كلمة الله تعالى القيمية والمعرفية لكلّ الثقافات والشعوب في العالم. والله -تعالى- في وحيه للنبي الأكرمﷺ يخبره بأنّ الرسالة الإسلامية هي لجميع الناس في العالم وهكذا عندما يخاطب الرسولﷺ يقول -تعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، ويخاطب البشرية كافّة بقوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[3]. هذا الإيمان بالكلمة الإلهية أعاد تشكيل العقل الإنساني؛ بما ينسجم مع الروحية الإنسانية، وليس مع عصبية القبيلة، أو عنصرية القوم، أو التعالي الثقافي بين الأمم، وإنّما للاقتراب أكثر، والشعور بشكل أعمق بالحقائق الإنسانية سواء أكانت سعيدة أم غير ذلك.

إذن، الله -تعالى-، وهو ربّ العالمين، ليس لديه تمييز بين ذكر وأنثى، أو قوم، أو عرق، أو لغة، وهو يتجاوز كلّ هذه الحدود. إنّ الإسلام حرّر الإنسان من كلّ أنواع الطغيان والتمييز العنصريّ. وفي تعاليم الإسلام وسلوك الأئمّةعليهم السلام والصالحين في المجال الاجتماعيّ الإنسانيّ ما يقدّم لنا صورة واضحة عن أنّ التشريعات الإسلاميّة والنصائح هي في صلب نظرية المساواة والعدالة؛ فالقيم الإسلاميّة تضع حدّاً لأيّ شكل من أشكال الظلم، والاستكبار، والاستئثار، والصدام على خلفية التمايز والمنفعة. وتحثّ على التعارف والتفاعل و«التعاقل»؛ أي إعمال العقل في فهم الطبيعة الثقافية؛ من عادات وتقاليد موروثة؛ من أجل تشكيل

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) الأنبياء: ١٠٧.
(٣) فاطر: ٤؛ الحجرات: ١٣؛ ...

القيم التي تسمح بالتفاعل الإنسانيّ؛ بما يحفظ وجودهم السلمي العادل في علاقاتهم. وحاشا لله -تعالى- أن يخلق ما يثير الفتن والصراعات اللا إنسانية أو أن يدعو، في المبدأ، لتغليب قوم على قوم أو ثقافة شعبية على ثقافة أخرى. فالله -تعالى- عندما يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] يتبعها بـ ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾؛ ما يعني أن تكونوا قدوة للآخرين من الناس، فأعمالكم ومسؤولياتكم هي التي تحدّد مكانتكم، وهنا تكمن ذروة الحرّيّة الإنسانية والمساواة أيضاً. ومن هذا المنطلق، تبرز الثقافة الإسلامية ثقافةَ الخير الإلهيَّ للإنسانية جمعاء، ثقافةَ إله واحد لإنسانية واحدة.

إنّ ما شوَّه، أو حرَّف مفاد بعض الآيات ومعانيها وكذلك بعض الأحاديث من السنّة النبوية الشريفة هو بعض النزعات العرقية، أو الميول الثقافيّة والسياسيّة في لحظات تاريخيّة أراد بعض الحكّام من خلال ذلك إعادة العصبيّة القبليّة؛ من أجل تثبيت سلطانهم ومصالح حاشيتهم، على حساب الدين الحنيف. وهذا ما سمّي في بعض الأدبيات «**فقه السلطان**»، حيث يقوم بعض «**الفقهاء المتسرّعين**» بالإفتاء بحسب رغبة السلطان ومصلحته. هذا الأمر حصل منذ أن وضع البعض يده على السلطة في الإسلام؛ من خلال غلبة قبليّة، أو تزوير؛ ما أعاق انتشار كلمة الله -تعالى- على لسان أوليائه، أو من خلال سلوكيّاتهم المنسجمة تماماً مع الكلمة الإلهية ورساليّتها الإنسانية.

هذه المحطّات المرتدّة والمتردّدة لم تستمرّ، ولم تستطع أن تصمد في وجه الحقائق والمعارف الإنسانيّة، ولا أن تشكّل مرجعية لعقل إنسانيّ روحانيّ وتشريع سماويّ مقبول. وهي إضافة إلى ذلك حاولت ولا تزال تجاهل القيم والعادات الإسلامية الجديدة التي أرساها رسول الله ﷺ وأصحابه المنتجبين وأهل بيته الأطهار عليهم السلام وتشويهها وتحريفها.

(١) آل عمران: ١١٠.

وكثيرون من الكتّاب والمؤرّخين في الغرب (جورج سارطون في كتابه «**تاريخ العلم**»، وتوماس آرنولد في كتابه «**تراث الإسلام**»، (مثلاً) أنصفوا الإسلام والمسلمين من خلال ذكرهم لمساهمات المسلمين في التراث العالمي الإنساني، وتقديمهم للإنسانية مساهمات رائعة في العلوم الإنسانية، واستكمالهم لما تأسّس عليه لاحقاً من علوم في الفلسفة والطبّ والفلك (من ابن سينا(٩٨٠-١٠٣٧م)، إلى ابن الهيثم(٩٦٥-١٠٤٠م) الذي كان معاصراً له، إلى ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨م)، إلى المحقّق نصير الدين الطوسي(١٢٠١-١٢٧٤م) وغيرهم).

إنّ الغرب استفاد قبل العلوم من الروحية العلمية للمسلمين، والتي لم تكن متوافرة في الغرب في تلك القرون، وبنى صرحه العلمي لاحقاً الذي استغلّته الطبقات الحاكمة الجديدة في الصراع مع الآخر بدلاً من أن تستغله في اتجاه السلام. والمشكلة، أنّ التحوّلات السياسية التي حصلت في العالم الإسلامي أقفلت باب الاجتهاد والعلم، وانتشر الظلم بدل فتح باب المعرفة، والظلم مقابل نور العقل والعلم، وعندما يغلق العقل يُظلم، وعندما لا يتحرك الجسم يفسد ويهلك. وهكذا أزيح الاستنباط والاجتهاد والحكم الشرعي، وأزيح الإنسان الذي تحوّل إلى آلة طبيعية. وفقدت الثقافة والمعرفة الإنسانية أدواتها العقلية، وتفتّتت الأمّة، وتخلّفت عن الركب الإنساني الحضاري العادل، وتركت المجال لعلوم الغرب الذي ساد وأعمل كلّ نظرياته في عقل الأمّة، على الأقلّ لفترة قرنين من الزمان، وانعكس ذلك على البيئة الثقافية التي ظَلمَت وظُلِمَت.

خامساً: العلاقة بين الفقه الإسلامي و«العلوم الإنسانية»:

خُصَّ الدين الإسلامي بالاجتهاد والفقه؛ أي معرفة الأحكام الشرعية من القرآن والسنّة النبوية الشريفة والأئمّة المعصومين عليهم السلام. وقد تصدّى الفقهاء، وخاصّة من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، الذين لم يتوقّفوا عن

الاجتهاد أصلاً، لمشكلات الإنسان المعاصر بإصدار الفتاوى المستنبطة من الكتاب والسنّة المعصومة. ولعلّ الفقه والتشريع الإسلاميَّين هما اللذان أبقيا الثقافة الإسلامية بعباداتها خاصّة ومعاملاتها حيّة في ضمائر المسلمين في جميع أنحاء العالم، وأبقى على عالمية الثقافة الإسلامية واستمراريّتها بين عامّة الناس، وبقي عامل جذب واستنارة لمشاكل الإنسان المعاصر. هذه المشاكل الاجتماعية أوجدتها الفلسفات الغربية بأبعادها الطبيعية، والمادّية، والاقتصادية المنفلتة من عقالها الإنساني. فكانت التشريعات الإسلامية هي الملاذ الوحيد عندما كانت تغيب عن غالبية الدول الإسلامية خاصّة، والتشريعات الدنيوية المتغيّرة والمتقلّبة بحسب مصالح الطبقات الحاكمة والدول والسلطات الدنيوية الناشئة. وهي بقيت حيّة في زمن عزّت فيه كرامة الإنسان، مسلماً كان أم غير مسلم.

وبقيت جميع الفرائض الإسلامية منوطة بالفقهاء، على الرغم من انحراف السلطات، وعدم عودتهم في تشريعاتهم السلطوية إلى مصادر التشريع. وبقي أغلبية الناس يعقلون واجباتهم أو يستقون سلوكهم في المناسبات الدينية والاجتماعية من الفقه الإسلامي. وكان همّهم متعلّقاً بواجبهم الديني؛ من فريضة الحج، إلى الصوم، والزواج، والطلاق، إضافة إلى علاقات الناس في الميراث والتنظيم الاجتماعي البعيد عن أسرار السلطات الدنيوية. وإن كانت كلّها سلوكيات دنيوية، ولكن قيادتها بقيت في يد الأمناء من الفقهاء العادلين الذين جاهدوا واجتهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

إنّ الفقه حفظ الإسلام من الذوبان في ثقافات الآخرين الظالمة، وهذا ما أعان وأعطى الحجة القوية لقيادة الفقه والفقهاء من أن تتبوّأ مكانها الطبيعي في تشكيل العقل السلوكي للإنسان؛ وذلك في ضبط القيم في زمن اهتزت فيه المعتقدات عند كثيرين.

يقول الإمام الخميني قدس سره: «**لولا وجود الفقهاء الأعزّاء لم يكن معلوماً كيف كانت ستعرض على الناس علوم القرآن والإسلام وعلوم أهل البيت عليهم السلام**»[١].

إنّ أولى أعمال الفقهاء هو تثبيت العقائد الإسلامية العالمية في المجتمعات الإسلامية؛ لتكون مصادر المعرفة للعقل الإنساني واضحة وأولويّاتها محدّدة. والتوحيد الإلهي يعتبر المدخل إلى شريعة موحّدة للقيم العالمية. والإيمان بالتوحيد ينتج عنه الإيمان بالوحي وكتاب الله تعالى الذي يحتوي بين دفّتيه ما يصلح للإنسان في دينه (في إيمانه، وفي العمل لآخرته) ودنياه؛ يعني في سلوكيّاته تجاه خالقه في هذا العالم، وتجاه مجتمعه وقضاياه؛ لما ورد في الحديث الشريف: «**الدنيا مزرعة الآخرة**»[٢].

يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: «**دخلت في الاجتهاد كلّ عملية يمارسها الفقيه لتحديد الموقف العملي تجاه الشريعة؛ عن طريق إقامة الدليل على الحكم الشرعي، أو على تعيين الموقف العملي المباشر، وهكذا أصبح الاجتهاد يرادف عملية الاستنباط**»[٣].

والاجتهاد واقع بحكم تغيّر الظروف الإنسانية وتبيين الأحكام للمؤمنين في تعاملهم بعضهم مع البعض الآخر، وفي تعاملهم مع غيرهم من الأمم . لا يَظلِمون ولا يُظلَمون. ففي هذا النصّ ضمانة عقلية وعملية للعقل الإنساني بأنّ نظام المعرفة الفقهيّة إنّما هو للمحافظة على الإنسان؛ بوصفه مخلوقاً إلهياً، والاجتهاد والفقه إنّما يُستنبطان من كتاب الخالق وسنّة النبي صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام. ومَنْ أحرص على سعادة الإنسانية وهداها من خالقها ورسوله صلى الله عليه وآله لهداية الناس أجمعين.

إذن، إنّ بذل الجهد والوسع العقلي الاستنباطي في حكمة الله -تعالى-

(١) من رسالة للإمام الخميني قدس سره إلى المراجع والعلماء وطلبة الحوزات الدينية، بتاريخ: ١٥ رجب ١٤٠٩ هـ. ق/ ٢٢ شباط ١٩٨٩م.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج٦٧، باب٥٤، ص٢٢٥.

(٣) الصدر، محمد باقر: المعالم الجديدة للأصول، ط٢، النجف الأشرف، مطبعة النعمان؛ طهران، مكتبة النجاح، ١٣٩٥هـ. ق/ ١٩٧٥م، ص٢٨.

وسنّة نبيه ﷺ إنّما هي ببعديها الروحي والجسماني عملية إنسانية شاملة ودائمة لا تستثني برهة زمنيّة، ولا سلطة زمنيّة، ولا عرقاً، ولا قبيلةً، ولا تمييزاً، ولا استنسابيّةً، ولا تجنّياً.

لقد وضع بعض العلماء والمفسّرين مئات الشروط والمواصفات للتفسير القرآني[1]، وكذلك للأخذ بصحّة الحديث وسنده المعتمد، فكيف سيكون عليه أمر الفقيه العادل والعارف والحاكم الشرعي؟ إنّ الفقه، تاريخياً، شكّل العمود الفقري للدين الإسلامي، وهو كان (وما زال) العلم الوحيد الذي يستطيع أن يفخر المسلمون بوضع أسسه وأصوله، واستنباط الأحكام الدينية المُبْرِئة للذمّة الفردية والجمعية، وهو حرّك العقول، وسيّر حياة الأغلبية الساحقة من المسلمين على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان.

إنّ مفهوم الأمّة الإسلامية، وعلاقة الإسلام بالإنسانية، لا يكتمل من دون الاجتهاد الفقهي التشريعي. وما تقدّم من علوم اللغة العربية، ومعرفة أسباب النزول للآيات المباركة، والتفسير، والتاريخ، وغيرها من العلوم، إنّما تطوّرت بسبب الأبحاث والتعمّق الدراسي الفقهي.

لم تكن غاية الفقه محدودة بالمسلمين، وإن كانت بالأصل هي للمؤمنين بالدعوة الإسلامية، وإنّما شملت العلاقة بأهل الكتاب على كافّة الأصعدة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلاقات العائلية والروحية والإيمانية ... وحتى العلاقة مع غير المؤمنين.

إنّ المحدّد الأساس للأحكام الفقهية هو: العدالة، والرحمة، والمودّة، وعدم الاعتداء، والحوار، والتعاون على البرّ والتقوى مع الناس كافّة.

(١) أنظر: السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٤١٦هـ. ق/ ١٩٩٦م، ج٢، النوع٩٠-٩٣.

خاتمة:

إنّ الإسلام قدّم أنموذجاً في العلوم الإنسانية يصلح لأن يكون منطلقاً عالمياً للسلام العالمي بين الأمم على الصعد الروحية والدنيوية، وفتح العقل الإنساني على الأبعاد التي يمكن أن تشكّل محاور لوجوده مع غيره؛ بسلام، ومحبّة، ومنع الاعتداء.

وإنّ المشكلة كانت وستبقى من حيث الاجتماع الإنساني والبنى العقلية كامنة في أنّ هناك نظريّتين تسودان العالم: النظرية الإسلامية التي تقول: «**أنا مع الآخر**»، والنظرية الأمريكية الغربية التي تقول: «**أنا ضدّ الآخر**». هذه عيّنة دقيقة عمّا يفكّر به الإسلاميون، وما يفكّر به الغربيّون، وخاصّة التطوريّون الطبيعيّون المناهضون للدين.

وخلاصة القول، إنّ العلاقات بين الأمم والشعوب العالمية لا يمكن أن تقوم إلا على معايير علمية دقيقة في تحديد المنهجيات والحقول المعرفية والمقاصد والغايات الإنسانية وتجديدها. إذ ليس من المعقول أنّ ما ينتجه العقل الإنساني العالمي يكون أداة خطرة لا بل قاتلة للإنسان الآخر، ولا ما ينتجه عقل جماعة ثقافية يكون أداة قاتلة للجماعة أو لمن حولها من الجماعات.

إذن على الإنسانية العاقلة أن تختار بين القيم القاتلة والقيم المحيية للإنسانية. فحرب «**الكلّ على الكلّ**» الهوبزية(نسبة إلى الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز)أثبتت أنّها عقيمة ومناقضة للعقل وحبّ البقاء الإنسانيين، وبالتالي لا عقل علمياً أو دينياً يرغب بأن يستبيح الإنسان دم الآخر أو ممتلكاته أو ثقافته.

بناءً عليه، إنّ ما تشهده العالمية من أزمات إنسانية متمادية ربما يمكن ردّه إلى نقص في مسألتين: نقص في العقل الثقافي؛ في أن يتطوّر إلى عقل علمي، أو نقص في العقل العلمي؛ في أن يكون إنسانياً وعالمياً. وهذا خلاف أصل وجوده.